في النسب الفكري للآخوند ومنه

الشيخ د . جعفر المهاجر

سيرةُ أيّ إنسان هي جماعُ أعماله من الولادة حتى الوفاة . وكلما اتسعتْ حياةُ صاحب السيرة ، وكانت عريضةً حافلةً بجلائل الأعمال ، كلما كان العبءُ أكبرُ على مَن يعملُ على تركيبها من مُفرداتها . لأنّ كلَّ مُفرَدةٍ مُفرَدةٍ هي إشكاليّةٌ بحدّ ذاتها . هنا ، خلافاً لِما يقولُهُ أربابُ العرفان ، كلما اتّسعَت الرؤيةُ باتساعِ المسلكِ طالَ السبيلُ وشقّ السفر.

إذن هلمّ بنا نقسم الطريق . ليس قسمةً عشوائيّةً تهربُ من المُهمّة الشّاقّة. بل اختياراً رشيداً وانتقاءً دقيقاً ، ينظرُ إلى ما هو أعودُ وأجدى وأنسبُ بالمقام .

سنضعُ تحت منظار البحث جانباً تفصيليّاً من سيرة الآخوند ، تعملُ على وضعه في موقعه المُناسب من الحالة المعنويّة العالقة في زمانه ، بما فيها من فكر ، وبما فيها ممّا نُسمّيه سياسة . أو فلنقُلْ من الحالة الفكريّة ومن إفرازاتها السياسيّة . وهو قد ضَربَ في الحالة بوجهيها بسهمٍ وافر.

(١)

على أنه لا بدّ لنا من المرور سريعاً بسيرته إجمالاً . فهذا يُتيحُ لنا منظوراً إلى الجزء من خلال الكلّ .

ونحن نعرف أن الفتى الهَراتيَّ الأصل الطوسيَّ المولد والنشأة قد اختطّ لنفسه مُبكّراً طريقاً مُختلفاً عن مهنة ربِّ الأُسرة في تجارة الحرير. وأنه انتظم لستّ سنوات في سلك الدراسة في مسقط رأسه . غادرها بعدُ ليستقرّ فترةً في سبزوار يدرسُ على حكيمها العظيم المُلاّ هادي السبزواري . ثم في طهران ليتلقّى العلوم الحكميّة على أبو الحسن بن محمد الطباطبائي الزوارئي ، المعروف

بأبو الحسن جلوه ، أعرفُ أُستاذٍ للحكمة في زمانه . ليغادرها أيضاً بعد زُهاء سنة مُتجهاً إلى النجف الأشرف .

في النجف الأشرف حضرعلى الشيخ الأنصاري مدّةً قصيرة ، أنقطعت بوفاة الأُستاذ (ت: ١٢٨١هـ/١٨٦٤م) . والظاهرأنّه أمضى بعدها فترةً ما قلقةً من حيث التحصيل . انتهت بانضوائه في حلقة درس أُستاذه السيّد محمد حسن الشيرازي ، وقد كان من قبلُ رفيقَ درسٍ له في حلقة الشيخ الأنصاري .

من المؤكد أن علاقة الآخوند المديدة بأستاذه الشيرازي قد بدأت في النجف ، أي أن بدايتها ترجع إلى ما قبل السنة ١٢٩١هـ/١٨٧٤م . وهي السنة التي انتقل فيها الأُستاذ إلى سامرّاء ، حيث أنشأ حوزتَها العلميّة ، التي لم يَطُل بها العمرُ أكثرَ من زُهاء أربعة عقود من السنين . لكنّ التلميذَ النجيبَ ما عتّمَ أن التحق بأُستاذه ، بعد فترةٍ من التردُّد فيما يبدو . ومُذ ذاك قامت بينهما علاقةٌ لم تنفصم إلا بوفاة الأُستاذ سنة ١٣١٢هـ/١٨٩٤م . استقلّ الآخوندُ على أثرها بالتدريس .

(٢)

من السهولة بمكان أن نربطَ بين تأثيرأبو الحسن جلوه وبين لُغة كتاب الآخوند الشهير (كفايةُ الأُصول) . هذا الكتاب الذي ما يزال بعد ما يزيدُ على القرن من طرحه للتدريس العامّ كتاباً أساسيّاً للطلاب في علم أُصول الفقه بفرعيه الأُصول اللفظيّة والأُصول العمليّة ، وخصوصاً في الفرع الأوّل . ففضلاً على النّفَس الفلسفي الطاغي الذي يسودُ الكتاب ، فإنّ لُغته البالغة التعقيد تُذكّرُ العارفَ بلغة أبو الحسن جلوه فيما نُشر من كُتُبه . وهي بعيدة جدّاً عن النّفَس الإشراقي واللغة السهلة نسبيّاً في مُصنّفات أُستاذه الآخر في الحكمة المُلاّ هادي السبزواري . ممّا ينفي تأثّره به في كتابه بنفَسَه الفلسفي .

(٣)

لكنّ الأكثرأهميّةً في المقام هو أن نقِفَ على تأثير الأداء السياسي للسيّد الشيرازي على مثيله لدى تلميذه .

ومن المعلوم أنّ ابرزَ أعمال السيّد في هذا النطاق هو ما يُعرفُ بثورة التنباك ، ذات الأثر غير المنكور ليس فقط بنتيجتها المُباشرة المعروفة ، ولكن بأنّها كانت الفاتحةَ والعنوانَ لظهور مزاجٍ شعبويّ في وطنها غير مسبوق . في هذه الثورة اكتشف الجمهور والقيادة الدينيّة معاً لأوّلِ مرّةٍ قوّتَهما المَطلبيّةَ الهائلةَ الحاسمةَ في مقابل التحالف السلطوي . الاستعماري ، الذي كان عليها أن تُقارعَه طويلاً في الحركة الدستوريّة (المشروطة) .

كانت ثورة التنباك مقدّمةً موضوعيّةً لحركة المشروطة ، التي كان صاحبُ هذه السيرة من أبرز أبطالها . وسار فيها حتى النهاية . وحتى عندما ظهر انحرافُها عن القصد ، وسيطرَ عليها جماعةٌ من العلمانيين المُتغرّبين ، الذين لم تكن علاقتهم بالمستعمر الانكليزي . الروسي خفيّة ، ممّا دعا الشيخ النوري للانقلاب عليها . ، فإن شيخنا الآخوند نعى عليه موقفه بحزم . تحت شعار أنّ الانحرافَ في التطبيق لا ينفى صحّةَ وأصالة المبدأ .

(٤)

هذه الإلماحات فيما يرجعُ إلى النسب الفكريّ الذي تأثّر به الآخوند . يبقى أن نُلمحَ إلى أين استمرّ هذا النسب منه .

إنّ أيسرَ طريقٍ إلى هذا المطلب نراه في تلاميذه ودورهم السياسي الاستنهاضي من بعده . وهنا يحضرُنا أسماءُ خمسةٍ منهم . نقرأُ في أدائهم تأثير أُستاذهم . هم :

١ . الشهيد السيّد حسن المُدرّس .

٢ . السيّد أبو القاسم الكاشاني .

٣ . الشيخ محمد حسين كاشف الغطا .

٤ . السيّد فاضل أحمدي الكاشاني .

٥ . القاضي والوزير هيئت علي التبريزي .

الأمر الجامعُ بين هؤلاء الخمسة الكبار أنهم وهبوا أنفسهم ومساعيهم خالصةً لقضية شعبهم تحت أصعب الظروف . أعني بعد أن بسط الاستعمار الغربي سلطانَه على كامل الرقعة الإسلاميّة . ولكلٍّ منهم دوره المُتفاوت من حيث تأثيره وحضوره في هذا النطاق ، الذي لا يتسعُ المقامُ لبسط الكلام عليه . خصوصاً وأنّنا ننتظر بشوق المؤتمرَ العتيد للشيخ كاشف الغطا . ونتمنّى أن تُخصّصَ ندوةٌ خاصةٌ لكلٍّ منهم ، خصوصاً للسيدين المُدرّس والكاشاني .

والحمد لله رب العالمين